المرأة الشاعرة قراءة في التراث الشعري

د.عبدالوحيد بوشرة
جامعة تلمسان - الجزائر

تاريخ الإرسال: 2019-02-27 تاريخ القبول: 2019-05-21 تاريخ النشر: 2019-05-31

الملخص بالعربية:

يهدف هذا المقال إلى تبيان التراث الشعري النسوي الذي حفل بأشعار النساء النوابغ، الذي وصلنا بعضها ولم يصلنا البعض الآخر الذي ربما قد أُهمل بقصد أو بغير قصد، إذْ لم يكن من السهل على المرأة قول الشعر في مجتمع ذكوري بامتياز إلاّ اذا كانت عالـمةً بقولـها مُتيقنة من شعرها، بالرغم من ذلك قد تبوّأت المرأة مكانة مرموقة في قول الشعر أمثال الخنساء وليلى الأخيلية وغيرهنّ ممن ملكن بلاغة اللّسان وفصاحة الأدب، خاصة في غرضي المدح والرثاء.

الكلمات المفتاحية: المرأة، الشعر، التراث، الرجل، حسن القول.

Abstract

The woman poetic: reading in poetry heritage

This article focused on discern the heritage of women poetic which it is full of good poetry of woman, but we can't affirm the exact number of him, because of the small number of the books received which was writing by men's pen, maybe neglected intentionally or unintentionally, for

that no women pretend to say poetry just if she has a good speech and she is certain about his poetry, however sometimes she takes a nice reputation as El-Khensa-a, Leila El-Akhilia and others.

Keywords : *woman, poetry, heritage, man, good speesh.*

توطئة:

إنّ المتتبع لتاريخ المرأة الشعري في كتابات التراث سيجد الكم الكافي حتى يقول أنّ المرأة في عصور مضت كان لها كلمتها ووزنها، بالرغم من أنّ المجتمعات العربية لم تكن تنظر إلى المرأة كالرجل في قول الشعر، هذا لأنّ الشعر كان من مقومات الفحولة في المجتمع العربي القديم، و أنّ صناعة الكلام كانت في ذلك المجتمع من مقومات الوجاهة و الفصاحة والفحولة والحُكم، وأنّ المرأة وُضعت في مرتبة الضعف والوهن وقلّة العقل واتباع العاطفة، حتى قيل أنّها إذا أرادت أن تتكلم بحجة لها إلاّ وانقلبت الحجة عليها، مع ذلك دخلت مجال الشعر وألقت كلمتها، فكيف يمكن للمرأة التي اعتبرت ناقصة عقل وتّبع عاطفتها أن يكون لها الحق في كتابة الشعر؟ وكيف يمكن للمرأة التي إذا أرادت أن تتكلّم بحجة لها إلاّ وانقلبت الحجة عليها أن تُبدع في المجال الأدبي؟ وهل فعلاً وضعت مكانة مشرفة تستحق ذلك الجهد المبذول والتضحيات العديدة.

يقول عبد الله الغذامي: "ولذا صارت العبقرية الإبداعية تُسمى فحولة وليس في الإبداع أنوثة، وإذا ما ظهرت امرأة واحدة نادرة وقالت بعض الشعر فلابد لها أن تستفحل ويشهد لها أحد الفحول مؤكدًا فحوليتها وعدم أنثويتها لكي تدخل على طرف صفحات ديوان العرب أو تحت عمود الفحولة هذا ما جرى للخنساء" . [1]

الإرهاصات الأولى لشعر المرأة:

شاركت المرأة في الأسواق التي كانت تقام لقول الشعر بأشعارها فجاورت الرجل بذلك، أي بحسن شعرها واتزان قولها، وإجادتها في قول الشعر، ذلك أنّ الرجل بالرغم من سلطويته إلاّ أنّه كان يعترف بإجادتها في قول الشعر ومجابهتها له، حين انتشر الشعر والمعلقات الشعرية،

والقصائد الطويلة، إلى جانب الأسواق الشعرية... حيث روي الأصمعي: "أنّ النابغة كانت تضرب له قبة في سوق عكاظ فتأتيه الشعراء فتعرض أشعارها عليه"[2].

وبالرغم من الأعراف الرّادعة للمرأة وإبعادها من المشهد الشعري العربي، إلاّ أنّها وضعت لها مكانة مرموقة في المجال الأدبي، ذلك أنّ المجتمع الجاهلي عُرف بكثرة الحروب والقتل، وكانت النساء أكثرهنّ تأثرًا بها، لذلك توجّهن إلى قول الشعر عبر انفعالهنّ و ألمهنّ لفقدان شخص عزيز أو لكثرة الدماء، وهذا ما ربط شعر المرأة بالرثاء، ومعروف عن الخنساء ذلك حين فجعت بموت أخيها صخر، وبذلك اعتبرت رائدة الرثاء العربي.

فالخنساء تميّزت في غرض الرثاء ولها ديوان شعر في رثاء أخويها صخر ومعاوية، ويُعتبر ديوانها مدونة العرب، فهو يُعبر عن عاطفة قوية صادقة متأجّجة محترقة ألمًا و حزنًا [3]، وبذلك عبّرت عن العلاقة الأخوية المتينة بينها وبين أخويها، خاصة صخر الذي جاد بماله عليها وكان سندها وأكثر عطفاً عليها، وأيضاً لأنّها من حرّضته على الثأر لموت أخيها معاوية، لذا كانت معظم قصائدها في رثاء أخيها صقر.

فقد أنشدت ترثي صخرًا: في قصيدة يا فارس الخيل، تقول:

ما بالُ عَيْنَــيْكِ منْها دمْعُها سَرَبُ ... أراعَها حَــــزَنٌ أمْ عادَها طَرَبُ
أم ذِكرُ صَخْرٍ بُعَيْدَ النّوْمِ هيّجها ... فالدّمْعُ منها عَلَيْهِ الدّهرَ يَنْسَكِبُ
يا لهفَ نَفسي على صَخرٍ إذا رَكِبَتْ ... خيْلٌ لــخَيْلٍ تُنادي ثمّ تَضْطَرِبُ
قد كانَ حِصْناً شَديدَ الرّكْنِ مُمْتنعاً ... ليْثاً إذا نَزَلَ الفِتْيانُ أو رَكِبُوا
أغَرُّ أزْهرُ، مِثْــلُ البَـدرِ صُرَتُهُ ... صافٍ،عَتيقٌ، فما في وَجْهِهِ نَدَبُ
يا فارِسَ الخَيْلِ إذْ شُدّتْ رَحائِلُهَا ... ومُطعِمَ الجوْعِ الهَلْكى إذا سَبغوا
كَمْ من ضَرائِكَ هُلاّكٍ و أرْمَلَةٍ ... حلّوا لَدَيْكَ فزالَتِ عنهمُ الكُــرَبُ [4]

فقد عُرفت الخنساء عند العرب من خلال رثائها، الذي خوّل لها الدخول من الباب الواسع في تصنيف الفحول من الرجال في قول الشعر، فقد كانت محط شدّ وجذب واستثناء، في ذلك قال جرير : " أنا لولا الخنساء" [5] حينما سئل عن أشعر النّاس، ذلك بالرغم من تباهيه بشعره.

وتدل الأخبار على أنّ بنات الأشراف والسّادة كان لهنّ منزلة سامية، فالخنساء البدوية كانت تقطن مكانًا له خصائص ومميّزات، فقد اشتهر أهلها أهل نجد، بالبلاغة وقد ذهبوا في الشعر كل مذهب، كما وقد كانت الخنساء عاقلة حازمة وجميلة، حتى عُدت من شهيرات النساء، فلا يجرؤ أحد على التهجم عليها أو التحدث عنها إلاّ لقي ما يسوؤه، لذا لم يتكلم عليها أحد، ولم يتفوه شاعر بشيء يمكن أن يُنقل وتحمله الألسن. [6]

وقد اشتهرت أم الضحاك بغرض الغزل وذلك في غزل زوجـــها، فغرض الغزل يحتاج لكثير من الشجاعة في ذلك العصر ، ذلك لما يرتبط بالتقاليد الاجتماعية والضوابط التي تفرضها الحياة أنداك. فقالت تتغزّل زوجها:

يا أيّـها الرّاكبُ الغادِي لِطَيّتـهِ عَرِّج أبثَّكَ عن بَعْضِ الذي أجِدُ
ما عالـــَجَ النَّاسُ مِن وِجْدٍ تضَمَّنُهُمْ إلاّ ووِجْدي به فَوْقَ الذي وَجدوا
حَسْــــبِي رِضَاهُ و أنّـي في مَسرّتهِ ووُدّهِ آخِرَ الأيامِ أجتـــَهِدُ [7]

ومن الشعر ما هو غزلي يقترب من مغامرات الشعراء، دون أن يشغل بتفاصيل المغامرة وخاصة حين لا تحرج الشاعرة الغزلة عن تصوير موقفها الغزلي على طريقة عشرقة المحاربية التي يجعلها العقاد إمامة العشاق بسبب قولها: حينما عبّرت عن أحاسيسها:

جَرَيْتُ مَعَ العُشَّاقِ في حَلبَةِ الهوى ففُقْتُهُمُ سَبْقًا و جِئْتُ على رِسْلي
فَمَا لَبِسَ العُشاقُ مِنْ حُلَلِ الهوى ولا خَلَعوا إلاّ الثِّيـابَ التي أُبلي
ولا شَرِبوا كأساً من الحُبِ مُرّةً ولا حُلْوَةً إلاَّ شَرابُـهُم فضلي [8]

أمّا الفخر أو الـمدح فمن أهم الأسس التي يُـبنى عليها الـجيّد من الشعر في نظر النقاد العرب القدامى وما نـجده عندهم عن أمدح بيت أو أفخر بيـت قالته العرب نراه يـحمل طابع المبالغة في تصوير الفضائل، ومن الأبيات التي وُصفت بأنّها أمدح ما قالته العرب قول الخنساء في أخيها صخر:

أَغَرُّ أَبْـــــجَلُ تَأْتَـــمُّ الهُداةُ بِهِ   كأنّهُ علَمٍ في رأْسِهِ نَـارُ [9]

وبمجيئ الإسلام تغيّرت الصورة المرسومة للمرأة في مناحي الحياة داخل البيئة العربية، ومنحها حقوقها ووضح لها واجباتها، وانتشلها من غياهب الجهل وفكر الوأدِ، وأعطاها مكانتها في الـمجتمع بـما يـحفظ حقها، وشاركت في الحياة الاجتماعية، وأيضًا شاركت برأيها في عدّة مسائل وكانت تجد الأذن الصّاغية لها حتى في ما يخص الشعر.

ويبدوا أنّ حب الشعر قد أصبح أقرب إلى نفس المرأة حين ينبغ في أسرتها شاعر، فإذا هي تروي عنه، وتنشد شعره، إذا ما أخذنا بما روي عن الفارعة بنت أبي الصلت أخت أمية، على رسول الله صل الله عليه وسلم بعد فتح الطائف، فقال لها هل تحفظين من شعر أخيك شيئاً ؟ فأنشديه شعراً :

كُلَ عَيْشٍ و إن تَطاوَلَ يـوماً   صَائرٌ مَرَّةً إلى أنْ يَزولا
لَيْتَـني كُنْتُ قَبْلَ ما قدْ بَدا لي   في تِلالِ الحَيِ أرْعى الوعولا [10]

وهذه قتيلة بنت النضر بن الحارث، قالت ترثي أباها الحارث و كان قد قُتل بأمر النبي عليه السلام: وكان من أسرى يوم بدر، وقُتل لأنّه كان بلج في عدائه للإسلام ويـُمهن في أذية النبي والمسلمين:

هل يَسمعنَّ النـــضر إنْ ناديتُهُ   بلْ كيْف يَسمعُ مَيّتٌ أو يَنْطِقُ
ظـــلَّتْ سُيُوفُ بني أبـيهِ تنوشُهُ   لله أرْحـامٌ هناك تـمزّقُ
صبْراَ يُقادُ إلى الـمَنّيَةِ مُتْـعبًا   رَسْفَ المقُيّدِ و هو عانٍ مُوثَقُ

أَمُحمَّدٌ يا خيْرَ صنْوِ كريمَةٍ   في قوْمِها والفَحْلُ فَحْلٌ مُعْرِقُ
ما كان ضرّكَ لوْ مَنَنْتَ و رُبَّمَا   مَنَّ الفتى وهو المغيظُ المُحنّقُ
فالنّضْرُ أقربُ منْ أسرْتَ قرابةً   وأحقّهم إنْ كان عَتْقٌ يُعْتَقُ
لو كنْتَ قابِل فدْيةٍ لفديتُه   بأعزِّ ما يفْدى به من يُنْفقُ

يذكر ابن هشام في هذا: قال النبي عليه الصلاة والسلام لما بلغه هذا الشعر، لو بلغني قبل قتله ما قتلته. [11]

هذا إنْ دلّ على شيء فإنّه يدل على أنّ مكانة المرأة كانت مرموقة وكلمتها غالية ومسموعة وكرامتها محفوظة ودمعتها غالية.

جرأة المرأة في قول الشعر والحكم عليه:

هاجى النابغة الجعدي ليلى الأخيلية فقال لها:

ألا حَيِّيَا لَيْلى وَ قُولاَ لَهَا هَلا   فَقَدْ رَكِبَتْ أغرُّ مُحجَّلا

فقالت تردّ عليه -و هما قصيدتان له و لها- فحكم نقاد الشعر بتفوق شعرها.

وعيَّرتني دَاءً بأَمِّك مِثْلَه   وأيُّ جوادٍ لا يُقَالُ له هلا[12]

ليلى الأخيلية اشتهرت هي الأخرى في قول الشعر والإجادة فيه، باعتراف من جهابذة الشعر أنداك من الرجال، كما وقد أبدعت في عدّة أغراض كالفخر والغزل والمدح والهجاء، وهذا ما استعملته في الدفاع عن نفسها وعن قبيلتها، حينما يتعرض لها أحد الشعراء بشعره، فتردّ عليه بشعرها وكانت في كثير من الأحايين تغلبه بل وتُلجمه، أمّا إذا قالت شعراً في المدح، فستكون قد أوفته حقه، فمدحت الكثير من الولاة، وأصحاب الشأن.

روى عمر الشيباني لليلى تمدح أبا بكر بن كلاب بن ربيعة:

إن كنْتَ تبْغِي أبَا بَكْرٍ فإنَّهُمْ بِكلِّ سَاحَةِ قَوْم مِنْهُم أثَرُ
نَعْمِي وبؤْسِي بآفَاقِ البِلادِ فَمَا يَنَالُ أعْدَاؤُهُمْ مِنْهُم، و لا قَدَرُوا
والعَالَمُونَ إذَا مَا الأَمْرُ ضَافَهُمُ أنا يُحَاوَلُ منه الوِرْدُ والصَدَرُ
واخْتَرْتُ آلَ أبي بَكْرٍ لِحَاجَتِنَا وكَانَ فِيهِم لمن يَخْتَارُهُم خيَر
ومَا اتهَمْتُ بني جَزْءٍ بِظَنَّتِهِ ومَا أَسَاءُوا ومَا ضَاعَ الذِي حَضروا [13]

أمّا في ما قالته في غزل توبة زوجها الذي قُتل، شعرٌ كثيرٌ، ونالت بهذا الشعر الكثير من الهدايا والعطايا من قصور الأمراء، و قد بالغت في مدحه.

قال لها معاوية ويحك ليلى لقد جزت بتوبة قدره، فقالت والله يا أمير المؤمنين لو رأيته وخبرته لعرفت أني مقصرة في نعته وأني لا أبلغ كنه ما هو أهله فقال لها معاوية من أي الرجال كان، قالت:

أتَتْهُ المَنَايَا حِينَ تَمَّ تَمَامُهُ وأَقْصَرَ عَنْهُ كُلُّ قِرْنٍ يُصَاوِلُهْ
وكَانَ كَلَيْثِ الغَابِ يَحْمِي عَرِينَهُ وتَرْضَى بِهِ أَشْبَالُهُ وَحَلائَلُهْ
غَضُوبٌ حَلِيمٌ حِينَ يَطْلُبُ حِلْمَهُ وَسَمٌّ زُعَاقٌ لاَ تُصَابُ مقاتله [14]

كما عُرفت بحكمها بين الشعراء، وإلحاح الشعراء على ليلى لتكون بينهم حكمًا، ولشعرهم ناقدة، على نحو ما كان من حميد بن ثور الهلالي، والعجير السلولي، ومزاحم العقيلي، وأوس بن غلفاء الهجيمي حين حكّموها في وصفهم للقطاة، فحكمت للعجير السلولي، وقالت:

ألاَ كُلّ مَا قَالَ الرُّوَاةُ و أَنْشَدُوا بِهَا غَيْر مَا قَالَ السَلُولِي بَهْرَجُ [15]

في هذا العصر نجد أيضاً أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما، كانت شاعرة وناثرة ذات منطق وبيان، حيث قالت لمّا قُتل ابنها عبدالله بن الزبير :

لَيْسَ لله مَحْرَمٌ بَعْدَ قَوْم قُتِلُوا بَيْنَ زَمْزَم والمقام
قَتَلَتْهُمْ جُفَاةُ عَكٍّ و لَخْم وصَدَاء وحمير و جُذام

فقال الحجاج لأسماء بعد قتل عبدالله: كيف رأيتني صنعْتُ بابنك؟ فقالت: أفسدْت عليه دنياه، وأفسد عليك آخرتك.[16]

وكذلك نجد هند بنت النعمان بن بشير الأنصارية كانت شاعرة وفصيحة وأديبة بارزة ذات حسن وجمال، فأراد الحجاج أن يتزوجها، فخطبها وشرط لها عليه بعد الصداق مائتي ألف درهم، ثم دخل عليها في بعض الأيام وهي تنظر في المرآة وتقول:

ومَا هِنْدُ إلاَّ مُهْـــــرَةٌ عَرَبِيَةٌ سَلِيـــلَةُ أَفْرَاسٍ تَـخَلَّلَهَا بَغْلُ
فَإِنْ وَلَـــدَتْ فَـحْلاً فــ لله دُرُّهَا وَ نْ وَلَدَتْ بغلاً فَجَاءَ بِهِ البَغْلُ

فأراد الحجاج طلقاها ولم يدخل عليها وأنفذ إليها عبدالله بن الطاهر ومعه مائتي ألف درهم، وقال: يا ابن الطاهر طلقها بكلمتين ولا تزد عليهما، فقال لها عبدالله: يقول لك الحجاج كنت فبنت، فقالت: والله يا ابن الطاهر كنا فما حمدنا وبنا فما ندمنا، وهذه المائتا ألف درهم التي جئت بها بشارة لك بخلاصي من كلب ثقيف.[17]

واشتهر هذا العصر بالشاعرة والناقدة المعروفة، سكينة بنت الحسين، التي محال أن تجد كتاب في النقد الأدبي العربي القديم لم يذكرها ولو إشارة صغيرة عليها، وقد عُرفت في الحكم على الشعر أكثر من قوله، خاصة مع شعراء النقائض الذين كانوا كثيري التردّد على بيتها، لما وجدوه من صواب حُكمها ولسخائها مع من كان فاق شعره شعر أقرانه.

في قولها الشعر: فقد كانت زوجة مصعب بن عمير، فلمّا قُتل قالت:

فَإِنْ تَقْتُلوه تَقْتُلُوا الـمَاجِدَ الّذِي يَرَى الـمَوْتَ إلاَّ بِالسُّيُوفِ حَارِماً
وَقَبْلَكَ مَا خَاضَ الحُسَـيْنُ مِنْيَةً إلَى القَوْمِ حتَّى أَوْرَدُوه جماماً [18]

أمّا في حكمها على الشعر:

يُروى عنها أنّه اجتمع بالمدينة مجموعة من رواة الشعراء، فادعى كل رواية فضل صاحبه على الآخرين، ثم اتفقوا أن يتجهوا إلى سكينة ليتحاكموا إليها في ذلك، فقالت لصاحب جميل: أليس صاحبك الذي يقول:

فَيَالَيْتَنِي أَعْمَى أَصَمّْ تَقُودُنِي بُثينةُ لَا يَخْفَى عَلَيَّ كَلامُهَا

قالت: رحم الله صاحبك فإنّه صادق في شعره.

وقالت: لصاحب جميل أيضًا في شعر آخر له

فَلَوْ تَرَكْتُ عَقْـلِي مَعِي مَا طَلَبْتُهَا ولَكِنْ طَلابيها لِمَا فَات مِنْ عَقْلِي
فإنْ وَجَدْتُ نَعْل بأَرْضِ مَضْلَةَ مِنَ الأَرْضِ يَوْمًا فاعْلَمِي أَنّهَا نَعْلِي
خَلِيني فِيما عِشْتُمَا هَلْ رَأَيْتُمَا قَتِـيلاً بَكَى مِنْ حُبِ قَاتِلِه قَبْلِي

قالت ما أرى لصاحبك هوى إنّما يطلب عقله قبح الله صاحبك، وقبّح شعره.

ثم قالت لصاحب نصيب: أليس صاحبك الذي يقول:

أَهِيمُ بِدَعْدٍ ما حَيِيتُ فإنِ أُمتْ فَوَاحَزَنِي منْ ذَا يَهِيمُ بِهَا بَعْدي

قالت: كأنّه يتمنى لها من يعشقها بعده، قبح الله صاحبك، وقبح شعره. [19]

فالواضح أنّ المرأة في العصر الأموي فتحت منافذ في البيئة العربية المحافظة أكثر وأصبح لها وجود أكبر وفاعل في المحافل، بل و حتى في الحكم على الشعر الذي كان له مكانة عالية في ذلك

الزمان والمكان، ولم يقصد هاته النسوة شعراء عاديين، بل كان يقصدهن ويلجئ إليهن في الحكم بالجدّة أو الرّداءة جهابذة الشعراء.

في العصر الأموي بدأ الانفتاح على الحضارات الأخرى كالفارسية والرومية، ووفود نساء من حضارات أخرى طمعًا

في حياة تملؤها الرفاهية، فشاركت المرأة في شتى المجالات، و برزت أيضًا في مجال الغناء، الذي جلبته الأجنبيات، "كان في النساء الوافدات من تعرف الغناء والموسيقى ممّا ساعد على استمالة القلوب الشابة الثرية الباحثة عن اللذاذة والترف والنعيم، وكانت شهرة المغنيات أكثر اتّساعاً في قصور الخلفاء ودور رجال الحكم والسياسة مثل جميلة و عزّة الميلاء وسلاّمة وحبابة ممّا يؤكد مكانة المرأة في المجتمع الأموي، فقد كان لها مشاركة فاعلة في الترف والسّماع والطرب، كما كانت مادة الشعر الغنائي يصف مشاعرها ومشاعر الشعراء نحوها" [20].

أمّا العصر العباسي اعتبر بمثابة الثورة في كل الميادين السياسية و الثقافية والاقتصادية والتجارية الدينية العلمية الشعرية، فهو عصر الحضارة الإسلامية وانتشارها وبلوغها أوج التقدم والتفتح، وكان بمثابة العصر الذهبي للإسلام والمسلمين من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب، كما وقد كان للمرأة حضورها في شتى الميادين، فقد خُصص لهم قِسماً في الكتب للنساء الفاعلات في المجتمع، فقد ورد العديد منهنّ كـJ العالمات والصوفيات والمدرسات والفارسات والشاعرات.

فهذه زبيدة بنت جعفر بن المنصور زوجة الرشيد، كانت ذات حكمة وروية مكّنتها من معالجة كثير من الأمور في أحرج المواقف، وقد استطاعت بما تملكه من رزانة عقل وهدوء خاطر إقناع الرشيد بأن يُبايع ابنها الأمين بولاية العهد و له من العمر خمس سنين. [21]

وتميزت أقوالها بقوة البيان وصفاء العبارة، بجانب الحفاظ على الحكمة والوقار، فلم ينحرف سلوكها عن نهجها الذي درجت عليه، دخل عليها أحد خدمها بعد مقتل ابنها الأمين قائلاً: ما يجلسك وقد قتل أمير المؤمنين محمد؟ فقالت: ويلك ما أصنع؟ فقال: تخرجين وتطلبين بثأره، فقالت اخسأ، ما للنساء والثأر ومنازلة الأبطال؟ ثم أمرت بثيابها فلبست السواد، ثم كتبت إلى المأمون:

لَخَيْرُ إِمَامٍ مِنْ خَيْـــرِ عُنْصُرٍ وَأَفْضَلُ رَاقٍ أَعْــوَادِ مِنْبَرِ
ووَارِثُ عِلْمِ الأَوَّلِينَ وَفَخْرَهُمْ وَلِلْمَلِكِ المَأْمُون مِنْ أُمِّ جَعْفَرِ
كَتَبْتُ وَعَيْنِي تَسْتَهِلُّ دُمُوعُهَا إِلَيْكَ ابْنَ عَمِي مِنْ جُفُونِي ومِحْجَرِي
أُصِبْتُ بِأَدْنَى النَّاسِ مِنِي قَرَابَة ومن الّ عن كبدي فَقُلْ تَصَبَّرِي [22]

وهذه علية بنت المهدي أخت هارون الرشيد، التي أعلنت الحب لأحد خدمها، وبذلك أغضبت الرشيد، فمنعه عنها، تقول:

تَحَبَّبْ فَإِنَّ الـحُبَّ دَاعِيَةُ الحُبِّ وَكَمْ مِنْ بَعِيدِ الدَارِ مُسْتَوْجِبَ القُرْبِ
تَبَصَّرْ فَإِنْ حَدَثَ أَنَّ أَخَا هَوَى نَجَا سَالِماً فَارِجُ النَّجَاةَ مِنَ الحُبِ
إذا لَمْ يَكُنْ فِي الـحبِّ سَخْط ولا رِضَى فَأَيْنَ حَلاَوَاتُ الرَّسَائِلِ والـكُتُبِ [23]

قيل أنّ البيت الأخير هو أجمل ما قيل في الغزل.

وقد قالت في أخيها هارون الرشيد وقد زارها مرة:

تَفْدِيكَ أُخْتُــكَ قَدْ حَبَوْتَ نِعْمَةٍ لَسْنَا نَعْدِلُهَا الزَمَانَ عَدِيلاً
إلاَّ الخُلُــــودَ وذَاكَ قُرْبُكَ سَيِّدِي لاَ زَالَ قُرْبُكَ والبَقَاءَ طَوِيلاً
وَحَمَدْتُ رَبِي فِي إِجَابَةِ دَعْوَتِي فرَأَيْتُ حَمْدِي عِنْدَ ذَاكَ قَلِيلاً [24]

أمّا خديجة بنت المأمون فقلّدت عمتها علية في التشبيب والتلحين، في قولها في خادم أبيها:

باللهِ قُولُنَّ لِــــمَنْ ذَا الرَشَا المُثْقَلُ الرَدِيفِ الهَضِيمِ الحَشَا
أَظْرَف مَا كَـانَ إذا مَا صَحَا وَأَمْلَحُ النَّاسِ إِذَا مَا اِنْتَشَى
وقَدْ بَنَى بُرْجَ حَمَـام له أَرْسَلَ فِيهِ طَائِراً مُـرْعِشَا
يَا لَيْتَنِي كُنْتُ حَمَـاماً لَهُ أَوْ بَاشِقاً يَفْعَلُ بِي مَا يَشَا

لوْ لَبِسَ القُوهِيَّ مِنْ رِقَّةٍ أَوْجَعَهُ القُوهِيَّ أَوْ خَدَّشَا [25]

فالمرأة في العصر العباسي كانت أكثر حرية في قول الشعر والتّغزل، وقوّة الكلمة دون تردّد، ففي هذا العصر انتشر الشعر والغناء بمختلف أغراضه، وتمكّنت المرأة من فرض مكانتها وإظهار رأيها، والتخلّص من الرهبة الفحولية، بعدم تخوّفها من اللّوم والعتاب.

وهذه رابعة العدوية صوفية زاهدة شاعرة، زهدت في الدنيا بكل ما فيها، وانعزلت عن الناس في خلوتها، وكانت كثيرة الذكر، والقيام وقراءة القرآن، حتى أنّه عند سماعها لآية من آيات النار أو العذاب يُغشى عليها، وقد كانت متعلقة بالله أيّما تعلق، و أحبت الله طمعاً في جنته و خوفاً من عذابه، ولها الكثير من الشعر في حب الله والتقرب منه.

قالت:

أُحِبُّكَ حُبَّيْـــنِ حُـــبُ الهَوَى وحُباً لِأَنـكَ أَهْلٌ لِذَاك
فَأَمَّا الّذِي هُوَ حُـبُ الهوى فَشُغْلِي بِذِكْرِكَ عَـمَّنْ سِوَاك
وَأَمَّا الّذِي أَنْتَ أَهْلٌ لَهُ فَكَشْفُكَ لِي الحُجبَ حَتَّى أَرَاك
فَلاَ الحَمْدُ فِي ذَا وَلاَ ذَاكَ لِي وَلَكِنْ لَكَ الحَمْدُ فِي ذَا و ذَاك [26]

شاعرات الأندلس:

الأندلس هي أندلس الحضارة هي أندلس الثقافة أندلس العلم الغزير، أندلس التفتح والاختلاط بالأجناس الأخرى، اشتهرت بالفنون والجمال والأدب، بفن العمارة والزخارف، و فيها وجدت النساء الحظ الوفير في المشاركة في الأعمال الخاصة بالسياسية والحكم والأدب والهندسة، فكان منهنّ الوزيرة والمدرسة والمحاربة والشاعرة والمغنية، كما و قد عُرف هذا العصر ببعض المجون لما ذُكر في الشعر الأندلسي ولو كان هناك في الطرف الآخر الرزانة والورع والتدين، فقد كان في شعر بعض النساء عبارات لا يقدر حتى الرجل على قولها، فقد اشتهرت النساء في

هذا العصر بفن الغزل كثيراً حتى كاد يطغى على الأغراض الأخرى، وقليل من المدح وبعض من الرثاء والهجاء.

هذه ولادة بنت المستكفي كانت واحدة زمانها، المشار إليها في أوانها، حسنة المحاضرة، مشكورة المذاكرة، كتبت بالذهب على طرازها الأيمن:

أَنَا واللهِ أَصْلُــــحُ لِلْمَعَـالِي   وَأَمْشِي مِشْيَتِي و اَتِيهُ تَيِهاً

و كتبت على الطراز الأيسر:

أُمَكِّنُ عَاشِقِي مِن صَحْنِ خَدِي   وأُعْطِي قُبْلَةً مَنْ يَشْتَهِيهَا

وكانت مع ذلك مشهورة بالصيانة والعفاف، وفيها خلع ابن زيدون. [27]

وكانت له جارية سوداء بديعة القوام: ظهر لولادة من ابن زيدون ميل إليها فكتبت إليه:

لو كُنْتَ تُنصِفُ فِي الهَوى ما بيْنَنَا   لَمْ تَهْوَ جَارِيَتِي و لَمْ تَتَخَيَّرِ
وتَرَكْتَ غُصْناً مُثْمِراً بِـجَمَالِهِ   وجَنَحْتَ للْغُصْنِ الّذِي لَمْ يُثْمِرِ
ولَقَدْ عَلِمْتَ بأَنَّنِي بَدْرُ السَمَا   لَكِنْ ولَعْتَ لِشَقْوَتي بالمُشْتري [28]

فبجرأة المرأة الأندلسية على استحضار كلمات جريئة لم يكن للنساء قبلها من الجرأة نفسها، هذا لا يعني أنهنّ كنّ نساء معروفات بالمجون، بل العكس كنّ نساء أصل و حسب ونسب، ومُعظم من قلن الشعر لم يكن إلاّ بنات أسياد الأندلس، هذا لأنّها وجدت حرية أكثر خاصة بعد اندماج عدّة حضارات، فقد كانت أكثر جرأة ونزعت ثوب الخجل ببعض التجاوزات في التعبير عن الرأي وقول ما يجول في الخاطر بدون وازع ولا مانع، حتى أنّ البعض امتنع من نقل تلك العبارات كما وردت.

وهذه نزهون القلاعية وهي شاعرة هجّاءة، اصطدمت بشاعر يُدعى أبو بكر المخزومي الأعمى، اصطدمت به في إحدى الندوات الأدبية، وتهجّمت عليه وسخرت منه، فنسمعه يهجوها ببيتين،وتردّ عليه بهجاء أشدّ إقذاعاً فتقول:

قلْ للوَضِيعِ مَقَــالاً يُتْلى إلى حِينَ يُحْشَرْ
من الــمُدوّرِ أُنشِئ ـت والـ.... منه أعْطَرْ
خُلِقْتَ أعْمــى و لكِنْ تَـهِيمُ في كلِّ ....
جَاوَبْتُ هَجْواً بِــهَجْوٍ فَقُلْ لُعنتَ مَنَ اَشْهـرْ
إنْ كُنْتَ في الخلْقِ أنْثــى فإنَّ شِعْري مُذَّكَرْ [29]

وهذه مهجة بنت التَّيَّاني القرطبية، كان أبوها يبيع التين وكانت من أجمل نساء زمانها.

ومن شعرها في ولاّدة:

وَلاَّدَةُ قَدْ صــِرْتِ ولاّدة من غيْرِ بَعْلٍ فُضِحَ الكَاتِمُ
حكَتْ لَنا مَرْيَـمَ لَكِنَمَا نَخْلَةُ هذي .... قَائِمُ [30]

فالواضح كان هناك تنافس بين الشاعرات في قول الشعر وأكثر من ذلك بل وصل إلى حدّ التهاجي فيما بينهنّ.

وهذه بنت أبي يعقوب القبضولي الشلبي، وهي أديبة وشاعرة جزلة مشهورة، وتحتشم لدينها وفضلها، وسكنت إشبيلية. فالمهتدي بعث إليها بدنانير وكتب إليها شعراً، فكتبت إليه:

مَنْ ذا يُجاريكَ في قولٍ وفي عمــلِ وقد بَدَرْتَ إلى فضْلٍ و لمْ تُسَلِ
مالي بشُكْرِ الذي نَظَّمْتَ في عُنُقي مِنَ اللآلي، و ما أوليتَ مِنَ قِبَلِ
حلّيْتني بُحلى أصْبَحْتُ زاهِيـةً بِها على كُلِ أنْثى من حُلىً عُطُلِ

لله أخْلاقُكَ الغُرُّ التي سُقِيَـتْ ماء الفُراتِ فَرَقَّتْ رِقَّةَ الغـزَلِ
أشْبَهْتَ في الشعــرِ منْ غَارَتْ بَدائِعهُ وأنْجَدَتْ و غَدَتْ في أحْسَـنِ المثلِ
منْ كانَ والِدهُ العَضْبُ المُهَـنَدُ لـم يَلِدْ مِنِ النّسْلِ غير البيضِ والأَسَلِ[31]

خاتمة:

بالرغم من الاضطهاد والعزل والحدود التي فرضت على المرأة خاصة في مجال الأدب أو الشعر، إلاّ أنّها على مختلف العصور لم تأبى إلاّ الحضور بقولها وشعرها وحُكمها على الشعر، باعتراف من جهابذة النقاد وباعتراف القلم الفحل الذي خط أخباراً عنها وعن شعرها ومواقفها في الحرب وفي السلم، في السياسة وفي العلم، خاصة مع تفتّح الفكر الفحولي في عصر التنوير ومجيئ الإسلام، وكما جاء في هذا المقال شعرها الذي عرف تطوّراً ملحوظاً، وتنوّع أغراض الشعر الذي كانت بدايته منحصرة فقط في الرثاء والمدح لينتقل فيما بعد إلى أخطر وأجرء غرض شعري، وهو الغزل الذي جادت فيه المرأة بل وشعرت فيه بجرأة غير معهودة، وهي بذلك لم تكن فقط بارعة في قول الشعر بل كانت حاضرة بذهنها، متيقظة لما يجري حولها، وكانت مثقفة متعلمة يقظة وذكية، وقد كانت تُعبر عن آرائها بكل حرية من خلال الشعر، إذْ أنّ حريتها كانت نسبية باختلاف العصور واختلاف العقليات والاختلاط مع الأجناس الأخرى والتفتح على الحضارات.

قائمة المصادر والمراجع:

أبوالفرج الأصبهاني، الأغاني، دار الفكر للجميع، طبعة بولاق الأصلية، المجلد الخامس، الجزء 9، بيروت، 1970، ص: 79.

بشير يموت، شاعرات العرب في الجاهلية و الإسلام، المكتبة الأهلية، بيروت، ط1، 1934، ص: 64.

جابر خضير جبر، المرأة و الإبداع الشعري: دراسة في الشعر و التلقي النسوي في التراث النقدي، مجلة آداب البصرة، العدد 70، 2014، ص: 45،46.

جلال الدين السّيوطي، نزهة الجلساء في أشعار النساء، تحقيق عبداللطيف عاشور، مكتبة القرآن، القاهرة، دت، ص:87.

الخنساء، ديوان الخنساء، شرحه: حمدُو طمّاس، دار المعارف، بيروت، ط2، 2004، ص:17.

سامي يوسف أبو زيد، الأدب الأندلسي، دار المسيرة، ط1، 2012، ص: 64،65

سهام عبد الوهاب الفريح، المرأة العربية و الإبداع الشعري، دار جرير، عمّان: الأردن، ط1، 2010، ص: 34،35.

سهام مادن، مساهمة المرأة في الأدب و اللغة، مجلة الثقافة الإسلامية: باحثات و قضايا المرأة في المجتمع والثقافة، العدد 2010/07، إصدارات وزارة الشؤون الدينية و الأوقاف، الجزائر، ص: 29.

عبد البديع صقر، نساء فاضلات، دار الاعتصام، القاهرة، دت، ص: 74.

عبدالله محمد الغذامي، تأنيث القصيدة و القارئ المختلف، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط2، 2005، ص: 12.

عيسى علي العاكوب، التفكير النقدي عند العرب: مدخل إلى نظرية الأدب العربي، دار الفكر، سوريا، ط1، 1997،ص26.

فاطمة تجور، المرأة في الشعر الأموي، منشورات اتحاد كتاب العرب، دمشق، 1999، ص: 103،104

المرزباني، أشعار النساء، مؤسسة هنداوي للتعليم و الثقافة، القاهرة، 2012، ص: 7.

مي يوسف خليف، الشعر النسائي في أدبنا القديم، دار غريب، القاهرة، 1991، ص: 134.

الهوامش:

[1] عبدالله محمد الغذامي، تأنيث القصيدة و القارئ المختلف، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط2، 2005، ص: 12.

[2] عيسى علي العاكوب، التفكير النقدي عند العرب:مدخل إلى نظرية الأدب العربي،دار الفكر، سوريا، ط1، 1997،ص26.

[3] سهام مادن، مساهمة المرأة في الأدب و اللغة، مجلة الثقافة الإسلامية: باحثات و قضايا المرأة في المجتمع و الثقافة، العدد 2010/07، إصدارات وزارة الشؤون الدينية و الأوقاف، الجزائر، ص: 29.

[4] الخنساء، ديوان الخنساء، شرحه: حمدُو طمّاس، دار المعارف، بيروت، ط2، 2004، ص:17.

[5] عبد البديع صقر، نساء فاضلات، دار الاعتصام، القاهرة، دت، ص: 74.

[6] الخنساء، ديوان الخنساء، مرجع سابق، ص: 7،8.

[7] بشير يموت، شاعرات العرب في الجاهلية و الإسلام، المكتبة الأهلية، بيروت، ط1، 1934، ص: 64.

[8] مي يوسف خليف، الشعر النسائي في أدبنا القديم، دار غريب، القاهرة، 1991، ص: 134.

[9] جابر خضير جبر، المرأة و الإبداع الشعري: دراسة في الشعر و التلقي النسوي في التراث النقدي، مجلة آداب البصرة، العدد 70، 2014، ص: 45،46.

[10] مي يوسف خليف، الشعر النسائي في أدبنا القديم، مرجع سابق، ص: 19،20.

[11] بشير يموت، شاعرات العرب في الجاهلية و الإسلام، مرجع سابق، ص: 134.

[12] المرزباني، أشعار النساء، مؤسسة هنداوي للتعليم و الثقافة، القاهرة، 2012، ص: 7.

[13] المرزباني، أشعار النساء، مرجع سابق، ص: 14

[14] أبو الفرج الأصبهاني، الأغاني، دار الفكر للجميع، طبعة بولاق الأصلية، المجلد الخامس، الجزء 9،بيروت، 1970،ص: 79.

[15] مي يوسف خليف، الشعر النسائي في أدبنا القديم، مرجع سابق، ص: 17.

[16] عبد البديع صقر، نساء فاضلات، مرجع سابق، ص: 55،56.

[17] عبد البديع صقر، نساء فاضلات، مرجع سابق، ص: 131.

[18] بشير يموت، شاعرات العرب في الجاهلية و الإسلام، مرجع سابق، ص: 171.

[19] سهام عبد الوهاب الفريح، المرأة العربية و الإبداع الشعري، دار جرير، عمّان: الأردن، ط1، 2010، ص: 34،35.

[20] فاطمة تجور، المرأة في الشعر الأموي، منشورات اتحاد كتّاب العرب، دمشق، 1999، ص: 103،104.

[21] سهام عبد الوهاب الفريح، المرأة العربية و الإبداع الشعري، مرجع سابق، ص: 25.

[22] سهام عبد الوهاب الفريح، المرأة العربية و الإبداع الشعري، مرجع سابق، ص: 27.

[23] أبي الفرج الأصبهاني، الأغاني، الجزء 9، مرجع سابق، ص: 90.

[24] المرجع نفسه، ص: 93.

[25] بشير يموت، شاعرات العرب في الجاهلية و الإسلام، مرجع سابق، ص: 237.

[26] بشير يموت، شاعرات العرب في الجاهلية و الإسلام، مرجع سابق، ص: 153.

[27] جلال الدين السّيوطي، نزهة الجلساء في أشعار النساء، تحقيق عبداللطيف عاشور، مكتبة القرآن، القاهرة ،دت، ص:87.

[28] المرجع نفسه، ص: 88.

[29] سامي يوسف أبو زيد، الأدب الأندلسي، دار المسيرة، ط1، 2012، ص: 64،65.

[30] جلال الدين السّيوطي، نزهة الجلساء في أشعار النساء، مرجع سابق، ص: 81.

[31] جلال الدين السّيوطي، نزهة الجلساء في أشعار النساء، مرجع سابق، ص: 79.